علم الكلام الإسلاميّ عند الإمام الحسن عليه السلام

روافد ومعطيات

أ. د. رحيم كريم علي الشَّرِفيّ[1]

م. عماد فاضل عبد[2]

(1) جامعة بابل/ كلية الدراسات القرآنية/قسم علوم القرآن.

(2) جامعة بابل/ كلية الدراسات القرآنية/قسم علوم القرآن.

ملخص البحث

من العلوم المهمّة التي نشأت في البيئة العربية الإسلامية (علم الكلام)، إذ يُعْرفُ أصحاب هذا العلم بـ (المتكلمين)، وهم مفسرو المعتقدات وقد انبرى هؤلاء للدفاع عن المعتقدات الإسلامية، والعقائد في ضوء هذا العلم في قبال الديانات والمذاهب الوافدة إلى الإسلام من يهوديّة، ومسيحيّة، ووثنيّة وغيرها، فالغاية القصوى للمتكلّم هي معرفة الله (عزّ وجلّ) وصفاته وأفعاله، فضلًا عن ذلك الوقوف على أصل العدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد، وما يمتّ إليها من صلات ولواحق ولوازم.

ولا جَرَم أنَّ هناك حقيقةً مزعومةً بخصوص نشأة هذا العلم، إذ ذهب كثير من الباحثين، ولا سيما ممّن أرّخ لتأسيس هذا العلم، والوقوف على نشأته وتطوره، وبيان روّاده إلى أنَّ المعتزلة- وهم الفرقة الإسلامية التي تكوّنت إبّان اعتزال واصل بن عطاء (ت131هـ) حَلْقة أو مجلس شيخه الحسن البصري (ت110هـ) - هُم أوّل مَنْ أوجد هذا العلم، فلا تكاد توجد فكرةٌ مهمّةٌ فيه إلّا ولها أصلٌ لديهم، فقد عرضوا لبعض مشاكله في أوائل القرن الثاني الهجري، وشُغلوا به نحو قرنٍ ونصف، ويرى إبراهيم مدكور أنَّ مدرسة المعتزلة من أخصب المدارس العقلية في الإسلام فكرًا ورجالًا، إذ فلسفت أمورًا لم تفلسف من قبلُ، وعالجت مشاكل فيها عمقٌ ودقّةٌ.

إلّا أنَّ الإنصاف والحقّ يشيران إلى أنَّ المؤسس الأوّل لهذا العلم هو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فإنّه أوّل مَنْ تكلّم من

بين الصحابة عن توحيد الله (عزّ وجلّ)، وصفاته، وأفعاله في ظلّ تراثه الزخّار، ودونك مدونة (نهج البلاغة) التي جاءت ملأى بالحقائق العقدية الإسلامية المتنوعة التي تُعدّ روح علم الكلام وجوهره، وقد فَطَنَ عباس محمود العقاد لهذه الحقيقة فقال: ((ويَصُحُّ أنْ يُقال: إنَّ عليًّا، رضي الله عنه، أبو علم الكلام في الإسلام؛ لأنَّ المتكلّمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ عليّ رضي الله عنه)).

الكلمات المفتاحية: علم الكلام, الإمام الحسن عليه السلام, المعتزلة.

رحيم كريم - عماد فاضل

مقدمة

من العلوم المهمة التي نشأت في البيئة العربية الإسلامية (علم الكلام)، إذ يُعْرفُ أصحاب هذا العلم بـ (المتكلمين)، وهم مفسرو المعتقدات وقد انبرى هؤلاء للدفاع عن المعتقدات الإسلامية، والعقائد في ضوء هذا العلم في قبال الديانات والمذاهب الوافدة إلى الإسلام من يهوديّة، ومسيحيّة، ووثنيّة وغيرها، فالغاية القصوى للمتكلّم هي معرفة الله (عزّ وجلّ) وصفاته وأفعاله، فضلًا عن ذلك الوقوف على أصل العدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد، وما يمتّ إليها من صلات ولواحق ولوازم.

ولا جَرَم أنَّ هناك حقيقة مزعومة بخصوص نشأة هذا العلم، إذ ذهب كثير من الباحثين، ولا سيما ممّن أرّخ لتأسيس هذا العلم، والوقوف على نشأته وتطوره، وبيان روّاده إلى أنَّ المعتزلة- وهم الفرقة الإسلامية التي تكوّنت إبّان اعتزال واصل بن عطاء (ت131هـ) حَلْقة أو مجلس شيخه الحسن البصري (ت110هـ) - هُم أوّل مَنْ أوجد هذا العلم، فلا تكاد توجد فكرة مهمة فيه إلّا ولها أصل لديهم، فقد عرضوا لبعض مشاكله في أوائل القرن الثاني الهجري، وشُغلوا به نحو قرن ونصف، ويرى إبراهيم مدكور أنَّ مدرسة المعتزلة من أخصب المدارس العقلية في الإسلام فكرًا ورجالًا، إذ فلسفت أمورًا لم تفلسف من قبلُ، وعالجت مشاكل فيها عمق ودقّة[1].

إلّا أنَّ الإنصاف والحقّ يشيران إلى أنَّ المؤسس الأوّل لهذا العلم هو

(1) ينظر: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق: 26/2.

الإمـام علـي بـن أبي طالـب (عليه السلام)، فإنّه أوّل مَـنْ تكلّم من بيـن الصحابة عن توحيـد الله (عـزّ وجـلّ)، وصفاتـه، وأفعالـه في ظـل تراثه الزخّـار، ودونك مدونـة (نهـج البلاغـة) التـي جـاءت مـلأى بالحقائـق العقديـة الإسـلامية المتنوعـة التـي تُعـدّ روح علم الـكلام وجوهـره، وقد فَطَنَ عبـاس محمود العقـاد لهـذه الحقيقـة فقال: ((ويَصُـحُّ أنْ يُقـال: إنَّ عليًّا، رضـي الله عنه، أبو علـم الـكلام في الإسـلام؛ لأنَّ المتكلّميـن أقاموا مذاهبهم على أساسـه كما قـال ابـن أبـي الحديد في شـرح نهـج البلاغـة، فواصـل بن عطـاء كبيرهم تلميـذ أبـي هاشـم عبـد الله بن محمد بـن الحنفية، وأبو هاشـم تلميـذ أبيه، وأبـوه تلميذ علـيّ رضي الله عنـه))[1].

والـذي يبـدو أيضًـا أنَّ أُصول هـذا العلم وقواعده قد أرسـاها كتاب العربيـة الأكبـر (القـرآن الكريـم)، فنجـد الإشـارات العاليـات المضمـون، والعظيمـات البيـان فـي أهـم موضوعـات هـذا العلـم، ولا سـيما قضيـة التوحيـد، والعـدل، والنبـوة، والإمامـة، والمعـاد، فضـلًا عـن صفـات الله (جـلّ جلالـه) وأفعالـه وغيرهـا، ولمّـا كان الإمـام الحسـن (عليه السلام) حليـف القـرآن، ورضيـع لبان النبـوة، وبُرْع أميـر المؤمنين (عليه السلام) فإنّنا نجد إشـارات واضحـات، وشـذرات مضيئـات لهـذا العلم فـي كلامه (عليه السلام)، ومـن المؤكّد أنَّ هذه الإشـارات سـابقةٌ لصنـع المعتزلة، وإنَّ اسـتقصاءها، واسـتجلاءها هـو شـغل هـذا البحـث، الذي سـيجيء فـي ثلاثـة مطالب.

المطلب الأول: التعريف بـ (علم الكلام) ومقاربة تأصيله.

المطلب الثاني: روافد علم الكلام عند الإمام الحسن (عليه السلام).

المطلـب الثالـث: معطيـات علـم الـكلام الإسـلامي عنـد الإمـام

(1) عبقرية الإمام علي (عليه السلام): 4.

الحسن عليه السلام.

وآن الأوان أن نتحدث عن فِقْرات هذا البحث من أجل استيحاء أهم الحقائق التي نخال أنّها ذاتُ سُهْمَةٍ في استجلاء التصور العميق لهذا العلم عند الإمام الحسن عليه السلام.

المطلب الأول

التعريف بـ (علم الكلام) مقاربة تأصيلية

تعريفهُ

في ظلّ تعريفات علم الكلام التي وقفنا عليها نجدُ أنَّها تكاد تتجه نحو بوصلة واحدة، فهو العلم الذي يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشُّبه، أو هو ملكةٌ يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرّح بها واضعُ الملّة، وتزييف كل ما خالها بالأقاويل، قال أبو نصر الفارابي (ت339هـ): (صناعة الكلام ملكةٌ يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملّة، وتزييف ما خالها بالأقاويل)[1]، ويرى أبو حامد الغزالي (ت505هـ) بأنَّه علم يطلع على قواعد عقائد أهل السنة، ويقترح تحقيقها بقواطع الأدلة[2]، ولا يخفى ضيق تعريف الغزالي، وانطوائه على مجال معرفي واحد، ويرى العلامة الحلّي (ت726هـ) أنَّ علم الكلام هو العلم الناظر في ذات

(1) إحصاء العلوم: 131.

(2) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد: 29.

الله تعالى وصفاته والمعلوم في كيفية تأثيراته[1]. وعرّفه محمد آصف المحسني بأنّه ((مسائل مشتملة على العقائد الدينية الحاصلة من أدلّتها التفصيلية))[2]. ويرى محمد أركون أنَّه العلم الذي يقوم على الجدل والحرب اللفظية التي سادت في البيئة الإسلامية ضد المانوس واليهود والمسيحيين والفلاسفة، وهؤلاء أجبروا الخطاب العقائدي الإسلامي على اتباع خط التبجيل والدفاع[3].

سبب تسميته

ظهر أنَّ الوجه في تسمية هذا العلم بـ(علم الكلام) هو البحث الذي اضطلع بالحديث عن الكلام الإلهي في حدوثه وقدومه، إذ إنَّ هذا البحث صار معركة للآراء بين المتكلمين خصوصًا، وقد أصبحت مسألة حدوث الكلام الإلهي وقدومه مورد اهتمام الأمويين والعباسيين، إذ تحولت المجالات الكلامية والعقائدية إلى نزاعات سياسية، فاشتدت الخصومات الكلامية، ومنها سمي هذا العلم بـ(علم الكلام)، قال الشهرستاني (ت548هـ): ((إمّا لأنَّ أظهر مسألة تكلموا فيها، وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام فسُمّي النوع باسمها))[4]، وقد توسع سعد الدين التفتزانيّ (ت791هـ) في بسط أسباب تسمية علم الكلام بهذا الاسم، فقال: ((وسَمُّوا معرفة العقائد من أدلتها بالكلام، لأنَّ عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام في كذا وكذا، ولأنَّ مسألة الكلام

(1) ينظر: منهاج اليقين في أصول الدين: 41-42.
(2) صراط الحق في المعارف الإسلامية (الأصول الاعتقادية): 7/1.
(3) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: 107.
(4) الملل والنحل: 30/1.

في حدوث القرآن وقدمه كانت أشهر مباحثه وأكثر نزاعًا وجدلاً، ولأنَّه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات، وإلزام الخصوم كالمنطق للفلسفة، ولأنَّه أول ما يجب من العلوم التي تُعْلم وتُتَعلّم بالكلام، فأطلق عليه الاسم لذلك ثُمَّ خُصّ به، ولم يطلق على غيره تميُّزًا له، ولأنَّه إنَّما يتحقق بالمباحثة وإرادة الكلام بين الجانبين وغيره قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب، ولأنَّه أكثر العلوم خلافًا ونزاعًا فيشتدّ افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والردّ عليهم))[1].

وقد ذكر حسن مكي العاملي ستة أسبابٍ في تسمية هذا العلم، مرجّحًا السبب السادس، قال: ((إنَّه سُمّي بعلم الكلام، لأنَّ مشايخ المعتزلة كانوا ذوي قرائح خصبة، وكفاءات خاصة في نَضْد القريض، وارتجال الخطب في المسائل الاعتقادية، والمناظرة فيها، حتى بلغوا الذروة واعتلوا السّنام في البلاغة والفصاحة فسمّيت صناعتهم نظرًا إلى أوصافهم وخصوصياتهم هذه بـ(الكلام)، وسَمُّوْهم بـ(المتكلمين)، ثُمَّ شاع استعمال هذا الاسم حتّى صار يطلق على كلّ بارعٍ في المناظرة في المسائل الاعتقادية (متكلّمًا)، وعلى العلم الباحث عنها بـ(علم الكلام)))[2].

ومن لواحق سبب تسميته الإشارة إلى أنَّ هناك تسميات وألقابًا للعلم الذي يبحث في العقائد الدينية إضافة إلى علم الكلام، مثل: أصول الدين، والإلهيات، وعلم العقائد، والفقه الأكبر، وعلم التوحيد،

(1) شرح المقاصد: 164/1، وينظر: بداية المعرفة (منهجية حديثة في علم الكلام): 200.

(2) بداية المعرفة (منهجية حديثة في علم الكلام): 34.

والصفـات، وعلم النظر والاسـتدلال[1].

نشأته وأهميّته

لا جَـرَم أنَّ أبحـاث علـم الـكلام الإسـلامي قـد ظهـرت فـي وقتٍ مبكـرٍ مـن ظهور الإسـلام، وكانت تأخذ صورة أسـئلة محـدودة لموضوع (مـا) يغلـب عليـه طابع الانفصـال، وعدم الارتبـاط الموضوعـي، ولم تبرز محـاولات فـي ذلـك الوقت للنظـر إليه بوصفـه علمًا مسـتقلًا[2].

نشـأ الـكلام الإمامـي أولًا - وقبـل كلّ شـيء- حـول الإمامـة ودار عليهـا منذ نشـأته الأولـى وإلى عصرنـا الحاضر، ويبـدو أنَّ قضيـة الإمامة كان لهـا القدم المعلى، والسّـهم الأوفر في اسـتلزام المخاصمـة والمناظرة، ولا سـيما إذا أخذنـا بنظـر التأمـل أنَّ الذيـن أنكـروا الإمامة يمثلـون الفئة الغالبـة الحاكمـة، والذيـن دانوا بها كانـوا الفئة المعارضـة، فكانت معارضة كلاميّـة تسـتجلب الجدل والحجاج لا السّـيف والسـلاح[3].

ويبـدو أنَّ تضافـر العوامل الداخلية والخارجية سـاعدت على نشـأة هـذا العلـم، هـذه العوامـل منهـا ما يخـرج من داخـل الجماعة الإسـلامية وعلـى رأسـها مسـألة الإمامـة والخلافة تلك المسـألة التي أدّت إلى نشـأة الفـرق الكلاميـة المختلفـة، زد علـى ذلـك العوامـل الداخليـة المتمثلـة بتأويـل بعـض النصـوص الدينية[4].

وقـد استشـعر الفخر الـرازي (ت606هـ) تخابط خصـوم الإمامية،

(1) ينظر: علم الكلام: 15-16.
(2) ينظر: علم الكلام المعاصر في ضوء المتغيرات الحديثة: 104-105.
(3) ينظر: الكلام عند الإمامية (نشأته وتطوره وموقع الشيخ المفيد منه): 146.
(4) ينظر: علم الكلام: 19.

ولا سيما المؤلفون في الفرق الإسلامية، مبيّنًا عدم دقتهم، وغياب الأمانة العلمية، قال في معرض ردّه على الشهرستاني في مللـه ونحله: ((إنَّه كتاب حكى فيه مذاهب العالم بزعمه إلّا أنَّه غير مُعْتَمَدٍ عليه؛ لأنَّه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى بـ(الفَرْق بين الفِرَق) تأليف الأستاذ أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين، ولا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح، ثُمَّ إنَّ الشهرستاني نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب؛ فلهذا السبب وقع الخلل في نقل هذه المذاهب))[1].

أمّا فيما يتصل بأهميّة علم الكلام، فنقول: إنَّه أرفع العلوم رتبةً وأعلاها درجةً، متكفلٌ بإثبات الصانع، واتّصافه بصفات الجلال والإكرام، وإثبات النبوة، وما يتبعها التي هي أساس الإسلام[2].

وشرف هذا العلم أنَّه تحصيل لسعادة الإنسان الأبدية، وخلوصه من العذاب الدائمي، وهو يمثل الجزء المهم من الفلسفة الإسلامية من جهة الكم، والنوع، وكثرة المسائل التي يتناولها، فضلًا عن ذلك تنوعها لتشمل الوجود، والمعرفة، والقيم.

ونعتقد جازمين أنَّ طريقة أهل البيت والعترة النبوية الطاهرة هي الحقيقة، والمعيار الآمن، والمعين الزاخر للإسلام الصافي النقي، فقد كان للأسس والمبادئ التي ارتكزت عليها هذه الطريقة جاذبية كبرى، وزخم عظيم دفعت عشّاق الحقّ والصراط إلى تكشيف الحقيقة بَل اعتناقها والدفاع عنها.

وتتجلّى المسائل الكلامية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام في خطبهم

(1) مناظرات فخر الدين الرازي في بلاد ما وراء النهر: 39.

(2) ينظر: شرح الفصول النصيريّة: 49.

ورسائلهم ووصاياهم وكلماتهم الحِكَميّة القصار وغيرها، فضلًا عن ذلك نجد البحث والتحليل، فهم الرتاج الوسيع لفهم معالم الدين، والعقائد الإسلامية الصحيحة.

وحان الحين أنْ نتحدث عن المعرفة الكلامية والعقدية عند الإمام الحسن عليه السلام، التي ندّت من أدبه المبارك، ولا يخفى أنَّ الروافد المعرفية العظيمة كالقرآن الكريم، وكلام جدّه صلى الله عليه وآله، وكلام أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وكلام أُمّه سيدة نساء العالمين عليها السلام كان له الأثر البالغ في استظهار المسائل العقدية المتنوعة في أدبه.

المطلب الثاني

روافد علم الكلام الإسلامي عند الإمام الحسن عليه السلام

في هذا المطلب سَنَفْلي أهم الروافد التي استقى منها الإمام الحسن عليه السلام المسائل العقدية، والقضايا التي لها مماسّة مع علم الكلام الإسلامي، فالأئمة عليهم السلام كانت لهم كماليّة المعرفة، وتماميّتها إلّا ما حَبَسَه الله (عزّ وجلّ)؛ لذلك لا سبيل إلّا القول إنَّهم أسهموا في الكشف عن جُلّ العلوم الإنسانية، والعلمية والمعرفية المتنوعة.

أشرنا من قبلُ أنَّ الكلام الإمامي كان أصلًا غير تابع ولا مُسْتَجْدٍ من غيره؛ لأنَّه يرتقي بأئمته الطاهرين عليهم السلام عن الاستعطاء والاستجداء عقيدة وشريعة خُلُقًا وسيرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقومُ الناسُ لربِّ العالمين[1]، ولا يلتفت إلى قول الشهرستانيّ في بيان تاريخ علم العقائد (الكلام)، إذ قال: ((ثُمَّ طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة

(1) ينظر: الكلام عند الإمامية (نشأته وتطوره وموقع الشيخ المفيد منه): 231-232.

كتب الفلاسفة حيث نشرت أيّام المأمون فخلط مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فنًّا من فنون العلم وسمتها باسم الكلام))[1].

تميّز الشيعة الإمامية بأنَّهم يستمدون ثوابتهم وعقائدهم من القرآن الكريم، وسنة النبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمة من آله عليهم السلام، إذ إنَّ علم الكلام من العلوم التي أحدثت صدىً واسعًا في العالم الإسلامي نظرًا لنوع المسائل المطروحة فيه، وقد أحدثت معارك فكرية واسعة.

إنَّ علم الكلام كسائر العلوم الإنسانية ظاهرة علمية نشأت بين المسلمين، فالقرآن الكريم هو المنطلق الأول لنشوء علم الكلام، والسنة المطهرة هي المنطلق الثاني، وكلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام المنطلق الثالث[2].

أولًا: كلام الله (عزّ وجلّ) القرآن الكريم

لا جَرَم أنَّ أُصول علم الكلام، وقواعده قد أرساها كتاب العربية الأكبر (القرآن الكريم)، فنجد الإشارات العالية المضمون، العظيمة الأُصول في أهم موضوعات هذا العلم، فقد أشار القرآن الكريم إلى التوحيد في آيات كثيرات، فضلًا عن صفاته، وأفعاله (جلّ جلاله)، وقضية النبوة، والإمامة، والمعاد وغيرها من المسائل الكلامية التي لها مسيس ووشيجة بموضوعات علم الكلام.

ونقطع جازمين أنَّ طبيعة القرآن الكريم بما تضمّنه من الآيات الكريمات في بيان موضوعات العقائد المختلفة من نحو: وجود الله، ومعرفته، وخلق العالم، وحقائق المعاد وغيرها قد ساعد في نشأة

(1) الملل والنحل: 30/1.

(2) ينظر: نهاية المرام في علم الكلام: 5-6.

علم الكلام الإسلامي، ويرى السيد كمال الحيدريّ أنَّ القرآن الكريم لا يحوي على أكثر من عشرة بالمئة من الأحكام الشرعية وربّما أقلّ من ذلك؛ لأنَّ آيات الأحكام الشرعية هي قرابة خمسمائة آيةٍ من مجموع ما يقارب ستة آلاف آية، في حين أنَّه أحصيت الآيات الواردة في علم الكلام، ولا سيما (المعاد) فقط، وجِدَتْ بحدود ألف وأربعمئة آية، فكيف إذا أضفنا إليها آيات التوحيد والنبوة والإمامة وصفات الله وأفعاله وغيرها[1].

ويبدو أنَّ حسن حنفي لم يرَق له هذا التصور، فهو يرى أنَّ علم الكلام علمٌ مقلوبٌ لا يملك شرعيّة موضوعه التي تُبْقى له محورية الحديث عن الله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأنَّ الوحي بوصفه الواسطة بين السماء والأرض كان وسيلة الله (سبحانه وتعالى) للتحدث للإنسان: ((إذا تحدّث الله في الوحي عن نفسه، فإنَّما يتحدّث للإنسان ولصالح الإنسان، وتأكيد لقيم الإنسان، فالإنسان هو اتجاه الوحي وموضوعه وغايته، بينما جعل علم الكلام اللهَ مركز الوحي وموضوع علمه، إذن علم الكلام علمٌ مقلوبٌ))[2].

وفي تتبّع أدب الإمام الحسن عليه السلام وجدنا سقيه المبارك من النمير العذب كلام الله (جلّ جلاله)، إذ صرّح عليه السلام بشرافة القرآن ومكانته وقداسته، وكونه المكنز العظيم، والسراج الوضّاء، والمرصد الأصلي في استجلاء العقائد الصحيحة، والعلوم المعرفية العالية، قال عليه السلام: «أَنَّ

(1) معالم التجديد الفقهي (معالجة إشكالية الثابت والمتغير في الفقه الإسلامي)، أبحاث السيد كمال الحيدري: 56، وأساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره: 328.

(2) التراث والتجديد من العقيدة إلى الثورة، 2: 607-608.

هَـذَا الْقُـرْآنَ فِيـهِ مَصَابِيـحُ النُّورِ وَ شِـفَاءُ الصُّـدُورِ فَلْيَجْلُ جَـالٍ بِضَوْئِهِ وَ لْيُلْجِـمِ الصِّفَـةَ قَلْبَهُ فَـإِنَّ التَّفْكِيرَ حَيَاةُ الْقَلْبِ الْبَصِيرِ كَمَا يَمْشِـي الْمُسْـتَنِيرُ فِـي الظُّلُمَـاتِ بِالنُّـورِ»[1]، وقد حَرَصَ الإمام الحسـن عليه السلام على تكشـيف المعـارف القرآنيـة في ضوء اسـتنطاق الآيـات القرآنية، قـال عليه السلام: «أَنَ اللَّهَ لَـمْ يَخْلُقْكُـمْ عَبَثـاً وَ لَيْـسَ بِتَارِكِكُمْ سُـدًى كَتَـبَ آجَالَكُمْ وَ قَسَـمَ بَيْنَكُمْ مَعَايِشَـكُمْ لِيَعْـرِفَ كُلُّ ذِي لُـبٍّ مَنْزِلَتَـهُ وَ أَنَّ مَا قُدِّرَ لَـهُ أَصَابَهُ وَ مَا صُرِفَ عَنْهُ فَلَـنْ يُصِيبَهُ»[2].

وأشـار الإمـام الحسـن عليه السلام بوصفـه مـن حـزب الله (عـزّ وجـلّ) الغالبيـن وعتـرة رسـوله الأقربيـن بأنَّـه تيقّـنَ حقائـق القـرآن كلّهـا، ولا سـيما المعـارف العقديـة والكلاميـة وغيرها، قـال عليه السلام: «نَحْنُ حِـزْبُ اللَّهِ الْغَالِبُـونَ وَ عِتْـرَةُ رَسُـولِهِ الْأَقْرَبُـونَ وَ أَهْـلُ بَيْتِـهِ الطَّيِّبُـونَ الطَّاهِـرُونَ وَ أَحَـدُ الثَّقَلَيْـنِ اللَّذَيْـنِ خَلَّفَهُمَـا رَسُـولُ اللَّهِ ص فِـي أُمَّتِـهِ وَ التَّالِـي كِتَابَ اللَّهِ فِيـهِ تَفْصِيـلُ كُلِّ شَـيْءٍ- لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِـنْ بَيْـنِ يَدَيْـهِ وَ لا مِـنْ خَلْفِـهِ فَالْمُعَـوَّلُ عَلَيْنَـا فِـي تَفْسِـيرِهِ لَا نَتَظَنَّـى تَأْوِيلَـهُ بَـلْ نَتَيَقَّـنُ حَقَائِقَهُ فَأَطِيعُونَـا فَـإِنَّ طَاعَتَنَـا مَفْرُوضَـةٌ إِذْ كَانَـتْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ رَسُـولِهِ مَقْرُونَةً»[3].

حقـاً وصدقـاً اسـتنطق الإمـام الحسـن عليه السلام القـرآن الكريـم مـن أجـل تكشـيف العقائـد الكلاميـة، تأمّل معنا اسـتجلاء عقيـدة الإمامة في قولـه عليه السلام: «أيُّهـا النـاس مَـنْ عَرَفني فقـط عَرَفني ومَنْ لـم يَعْرِفْني فأنا الحسـن بـن علـيّ، وأنـا ابـن الوحي، وأنـا ابن البشـير، وأنـا ابـن النذير،

(1) كشف الغمة في معرفة الأئمة، 2: 136.

(2) تحف العقول عن آل الرسول: 232.

(3) مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3: 10-11.

وأنا ابن الداعي إلى الله والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل فينا، ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم، فقال لنبيّه ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾»[1].

ثانيًا: كلام النبيّ صلى الله عليه وآله

ارتوى الإمام الحسن عليه السلام من نمير جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، وتغذّى من غذائه الطاهر، فهو رضيع لبان الحكمة، وابن سُلالة النبوة، قال الحسين عليه السلام مُؤَبِّنًا أخاه الإمام الحسن عليه السلام مستظهرًا هذه الحقيقة: «رَحِمَكَ اللهُ أَبَا مُحَمَّد! أنْ كُنْتَ لَتُباصِرُ الْحَقَّ مَظانَّهُ، وَتُؤْثِرُ اللهَ عِنْدَ مداحُضِ الْباطِلِ في مَواطِنِ التَّقيَّةِ بِحُسْنِ الرَّوِيَّةِ، وَتَسْتَشِفُّ جَليلَ مَعاظِمِ الدُّنْيا بِعَين لَها حاقِرَة، وتَفيضُ عَلَيْها يَداً طاهِرَةَ الأَطْرافِ نَقيَّةَ الأَسِرَّةِ، وَتَرْدَعُ بادِرَةَ غُرَبِ أَعْدائِكَ بِأَيْسَرِ الْمَؤُونَةِ عَلَيْكَ، وَلا غَرْوَ وَأَنْتَ ابْنُ سُلالَةِ النُّبُوَّةِ، وَرَضيعُ لِبانِ الْحِكْمَةِ، فَإِلى رَوْحِ وَرَيْحان وَجَنَّةِ نَعيم، أَعْظَمَ اللهُ لَنا وَلَكُمُ الأَجْرَ عَلَيْهِ، وَوَهَبَ لَنا وَلَكُمُ السَّلْوَةَ وَحُسْنَ الأُسى عَنْهُ»[2].

وقد استجلى الإمام الحسن عليه السلام أصل النبوة وصفاتها، وأركانها في رسالته النافعة المفيدة إلى معاوية بن أبي سفيان (صوت الشيطان، ومنهج التجزئة)، قال عليه السلام: «من الحسن بن عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان سلام عليك، فإنّي أحمدُ إليّك الله الذي لا إله

(1) الذرية الطاهرة النبوية : 108. سورة الشورى من الآية: 23.
(2) عيون الأخبار، ابن قتيبة: 295.

إلّا هو، أمّا بعد فإنَّ الله (جلّ جلاله) بعث محمدًا رحمة للعالمين، ومنّة للمؤمنين، وكافة للناس أجمعين ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾، فبلّغ رسالات الله، وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصرٍ، ولا وانٍ، وبعد أن أظهر الله به الحقّ، ومحق به الشرك، وخصّ به قريشًا خاصة، فقال له: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾»[1]، فأشار الإمام عليه السلام إلى صفات النبوة، فيها تعرف سبيل السعادة (سعادة الآخرة)، ولابدّ من تحقيق الحكمة الإلهيّة، وحكمة الله (تعالى) من خلق البشر في إرسال شخص يُعلمهم المعارف الحقة، ويوضحها لهم، ويزيل عنهم الشبهات، ويذكرهم بالنعيم الموعود، ويحذرهم العقاب وسوء المآل، فالحكمة الإلهيّة توجب إرسال النبيّ إلى البشر من أجل حصول السعادة والإيمان الحقيقي[2].

ويظهر الزَّهو الإيماني الخالص بالانتساب إلى شجرة النبوة، وأنَّه وريث السلالة، قال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التُّقَى وَ أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ وَ إِنَّكُمْ لَوْ طَلَبْتُمْ مَا بَيْنَ جَابَلْقَ وَ جَابَرْسَ رَجُلًا جَدُّهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَا وَجَدْتُمُوهُ غَيْرِي وَ غَيْرَ أَخِيَ الْحُسَيْنِ وَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ هَدَاكُمْ بِجَدِّي مُحَمَّدٍ فَأَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَ رَفَعَكُمْ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَ أَعَزَّكُمْ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ وَ كَثَّرَكُمْ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ»[3]، فالإمام عليه السلام يستظهر أصلًا عقديًّا مهمًا (النبوة)، مبيّنًا الغاية من إرسال الرسل من أجل هداية الناس، وإنقاذهم من الضلالة والتيه، زد على ذلك إفهامهم أمور دينهم الصحيحة المستقيمة، ولا يخفى الإشارات

(1) مقاتل الطالبيين: 55. سورة يس، الآية: 55، سورة الزخرف، الآية:44.

(2) ينظر: بداية المعرفة: 200-201.

(3) كشف الغمة في معرفة الأئمة: 134/2.

الخفية في النصّ الحسني إلى قضية العصمة الكبرى التي تتلبسُ بالنبيّ صلى الله عليه وآله، وبيان المهمة العظمى التي من أجلها بُعث.

ثالثًا: كلام أبيه أمير المؤمنين عليه السلام

انطوى الإمام عليّ عليه السلام على مكنون علم، ومنبع معرفة وقد أعلن هذه الحقيقة، قال عليه السلام: «بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ»[1]، وأنَّه من الراسخين في العلم، قال عليه السلام: «أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا كَذِباً وَ بَغْياً عَلَيْنَا أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَ وَضَعَهُمْ وَ أَعْطَانَا وَ حَرَمَهُمْ وَ أَدْخَلَنَا وَ أَخْرَجَهُمْ بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى وَ يُسْتَجْلَى الْعَمَى»[2]، ولمّا رأى عليه السلام أنَّ القلوب لا تستوعب علمه، والعقول لا تفقه كنه معرفته، قال قولته المشهورة الخالدة: «أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا وَ تَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا»[3].

وقد تعددت طرائق الحصول على المعارف عند الأئمة عليهم السلام، ولا سيما الإمام الحسن عليه السلام، وهي طرق ربّانية، منها: زقُّ العلم زقًّا، غرّ العلم غرًّا، شرح الصدر، الإلهام، التحديث، بوساطة روح القدس، نقر الاسماع والقلوب وهو أفضل علمهم[4].

وقد ذكرنا من قبلُ أنَّ الإمام عليّ عليه السلام هو أبو علم الكلام

(1) نهج البلاغة، محمد عبده: 34/1.
(2) المصدر نفسه: 192/2.
(3) المصدر نفسه: 261/2.
(4) ينظر: علم الإمام (تقريراً لدروس السيد كمال الحيدري): 227-250.

الإسلاميّ، إذ برزت حدود علم الكلام في كلماته المباركة في النَّهج السامي، فنلمح خطوط علم الكلام العريضة في التوحيد، والجبر والاختيار، والإمامة، والمعاد وغيرها من تلك المضامين، وهذا الأمر هو الذي ميّز مدرسة أهل البيت عليهم السلام أئمة وصحابة وتابعين، وهو مبدأ تكشف المعارف الإسلامية المتنوعة، والإسهام في الإجابة والتوضيح والخوض في مواضع من دون خشية، فكانوا مرجعًا للسؤال من الجميع، فهم أرحب صدرًا، وأوسع انفتاحًا فكريًا[1].

وقد حفظ التاريخ نصوصًا خالدات ساميات، تأمّل معنا - أيُّها القارئ الكريم- خطبة أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة، وذلك أنَّ رجلًا قال له – وهو يخطب- صف لنا ربَّنا مثل ما نراه عيانًا، فغضب عليه السلام ونادى الصلاة جامعة، فاجتمع إليه الناس حتّى غصّ المسجد بأهله، فقال في جملة ما قال: «فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَ تَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَ لَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَا نِدَّ لَكَ وَ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَ نَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَ جَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَ قَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَ الْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ وَ نَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ وَ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ

(1) ينظر: المنهج التوحيدي عند الإمام الكاظم عليه السلام: 206-207.

فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً وَ لَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفا»[1]، أجْمِلْ بقوله عليه السلام إذ شبّهوك بأصنامهم، تعبير صادق، وقاطع عن نفي التشبيه عنه (جلّ جلاله).

برهن الإمام الحسن عليه السلام إحاطته بالمعارف العقدية الكلامية من نحو: الدعوة إلى الله، والنبوة، والإمامة في ظل استرفاده واستروائه من القرآن الكريم، وجدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وأمّه سيدة نساء العالمين عليها السلام، فقال خطيبًا حينما أرسله أبوه عليه السلام إلى الكوفة وصحبه عمّار بن ياسر؛ من أجل استنهاض همم أهل الكوفة وتعريفهم بالإمام الحقّ؛ لأنَّ أبا موسى الأشعريّ كان كارهًا للقتال، مجبّنًا الناس للخروج ضد صوت المكر والخداع والدهاء معاوية بن أبي سفيان، قال الإمام الحسن عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا جِئْنَاكُمْ نَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَ إِلَى كِتَابِهِ وَ سُنَّةِ رَسُولِهِ وَ إِلَى أَفْقَهِ مَنْ تَفَقَّهَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ أَعْدَلِ مَنْ تُعَدِّلُونَ وَ أَفْضَلِ مَنْ تُفَضِّلُونَ وَ أَوْفَى مَنْ تُبَايِعُونَ مَنْ لَمْ يُعْيِهِ الْقُرْآنُ وَ لَمْ تُجَهِّلْهُ السُّنَّةُ وَ لَمْ تَقْعُدْ بِهِ السَّابِقَةُ إِلَى مَنْ قَرَّبَهُ اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ قَرَابَتَيْنِ قَرَابَةَ الدِّينِ وَ قَرَابَةَ الرَّحِمِ»[2].

رابعًا: كلام أمّه فاطمة الزهراء (عليها السلام)

دلّت الأخبار على خصوصية الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله بشرف المنزلة، وحيازة الفضل والتقديم على جميع نساء العالمين بعلوّ المرقاة، وسموّ الدرجات، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(1) محمد عبده، نهج البلاغة، 1/163-164.
(2) أعيان الشيعة: 2/369.

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ لِغَضَبِ فَاطِمَةَ وَ يَرْضَى لِرِضَاهَا»[1]، هذا المكنز العظيم، والمحضن الطاهر، والمعقل الأُمومي المثالي كان له الأثر في استظهار التعاليم والمعارف الاسلامية عامة، والمعارف الكلامية العقدية خاصة، وقد أفاد الامام الحسن عليه السلام من المعارف الاسلامية العظيمة التي انطوت عليها أمّه الزهراء عليها السلام، وسنرقب هذه الإفادة في ظل الوقوف على فقرات من خطبتها المباركة، حينما أجمع أبو بكر وعمر على منعها فدكًا، وبلغها هذا الصنيع البعيد عن النهج القرآني المستقيم، والذي يهمنا من الخطبة المباركة الإشارات إلى مسائل عقدية كلامية ترشح من خطبتها.

أ. التوحيد

قالت عليها السلام: «وَ أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جُعِلَ الْإِخْلَاصُ تَأْوِيلَهَا، وَ ضُمِّنَ الْقُلُوبُ مَوْصُولَهَا، وَ أَنَارَ فِي الْفِكْرَةِ مَعْقُولُهَا، الْمُمْتَنِعُ مِنَ الْأَبْصَارِ رُؤْيَتُهُ، وَ مِنَ الْأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَ مِنَ الْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهُ، ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا، وَ أَنْشَأَهَا بِلَا احْتِذَاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَهَا، كَوَّنَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَ ذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا، وَ لَا فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا، إِلَّا تَثْبِيتاً لِحِكْمَتِهِ، وَ تَنْبِيهاً عَلَى طَاعَتِهِ، وَ إِظْهَاراً لِقُدْرَتِهِ، وَ تَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وَ إِعْزَازاً لِدَعْوَتِهِ»[2].

ب. النبوة

قالت عليها السلام: «وَ أَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، اخْتَارَهُ وَ انْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَ سَمَّاهُ قَبْلَ أَنِ اجْتَبَلَهُ، وَ اصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنِ ابْتَعَثَهُ، إِذِ الْخَلَائِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَ بِسَتْرِ الْأَهَاوِيلِ مَصُونَةٌ، وَ بِنِهَايَةِ

(1) للشيخ المفيد، الأمالي، 95.

(2) المجلسي، بحار الأنوار: 239/29.

الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْماً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَآيِلِ الْأُمُورِ، وَ إِحَاطَةً بِحَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَ مَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ الْمَقْدُورِ، ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ، وَ عَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَ إِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ، فَرَأَى الْأُمَمَ فِرَقاً فِي أَدْيَانِهَا، عُكَّفاً عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكِرَةً لِلَّهِ مَعَ عِرْفَانِهَا، فَأَنَارَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ظُلَمَهَا، وَ كَشَفَ عَنِ الْقُلُوبِ بُهَمَهَا، وَ جَلَى عَنِ الْأَبْصَارِ غُمَمَهَا، وَ قَامَ فِي النَّاسِ بِالْهِدَايَةِ، وَ أَنْقَذَهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَ بَصَّرَهُمْ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَ هَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَ دَعَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ»[1].

جـ. الإمامة

يبدو أنَّ فضاعة الأمر، وفداحة الصنيع حدت بالسيدة المحدثة الزهراء عليها السلام أن تكشف النقاب عن المنهج الاسلامي الحقيقي، والجبهة الإيمانية الأصلية، المتمثل بأهل بيته الكرام، قالت عليها السلام: «وَ طَاعَتَنَا نِظَاماً لِلْمِلَّةِ، وَ إِمَامَتَنَا أَمَاناً مِنَ الْفُرْقَةِ»[2]، وقالت عليها السلام: «فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ، وَ مَأْوَى أَصْفِيَائِهِ، ظَهَرَ فِيكُمْ حَسِيكَةُ النِّفَاقِ، وَ سَمَلَ جِلْبَابُ الدِّينِ»[3].

د. المعاد

يبدو أنَّ التذكير بالمعاد، وحوادث يوم القيامة ومشاهدها، والتذكير بالجنة والنار أمرٌ يتطلبه الموقف ولا سيما في وجه الحكام، وأصحاب السّلطة من أجل إيقاظ الضمير، وتنبيه العقل إلى مآل الإنسان، قالت عليها السلام: «وَ زَعَمْتُمْ أَلَّا حُظْوَةَ لِي وَ لَا أَرِثَ مِنْ أَبِي وَ لَا

(1) المجلسي، بحار الأنوار: 239/29.
(2) المجلسي، بحار الأنوار: 240/29.
(3) المصدر السابق.

رَحِمَ بَيْنَنَا، أَ فَخَصَّكُمُ اللَّهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْهَا أَبِي ﷺ؟! أَمْ هَلْ تَقُولُونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لَا يَتَوَارَثَانِ؟!، أَ وَ لَسْتُ أَنَا وَ أَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ؟! أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَ عُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَ ابْنِ عَمِّي؟! فَدُونَكُمَا مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً تَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ، وَ الزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَ الْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ، وَ عِنْدَ السَّاعَةِ مَا تَخْسَرُونَ، وَ لَا يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ، وَ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ»[1]، تأويل وعيدها الذي جاء على لسان القرآن الكريم «فَدُونَكُمُوهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، بَاقِيَةَ الْعَارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللَّهِ وَ شَنَارِ الْأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِ: نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ فَبِعَيْنِ اللَّهِ مَا تَفْعَلُونَ وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ وَ أَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَ: اعْمَلُوا ... إِنَّا عامِلُونَ وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ»[2].

المطلب الثالث

معطيات علم الكلام الاسلاميّ عند الإمام الحسن عليه السلام

في ظل وقوفنا على المعارف العقدية، والمسائل الكلامية التي دشّنها الإمام الحسن عليه السلام ظهر لنا هدفٌ سام لهذا الصنيع، وهو استظهار إرادة الله (عزّ وجلّ)، فهو لم يتصرف عليه السلام إلّا بحدود الإرادة الإلهية؛ لأنّه غير منفصل إطلاقًا عن الوحي والرسالة فهو ذلك النور الإلاهي الذي أخرجه الله (عزّ وجلّ) من صلب نبي من أنبيائه المفضّلين على

(1) المجلسي، بحار الأنوار: 240/29.

(2) المصدر نفسه: 241/29.

الأنبياء جميعهم، فهو يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه (عزّ وجلّ)[1].

وقد عَمِلَ الإمام الحسن عليه السلام على استرفاد الروح التاريخية الزمانية غير الواقعية من موضوعات علم العقائد من أجل جعل الإجابات العقدية أكثر رحابةً وتوسيعًا، ولا سيّما في ظلّ المقاربات المعرفية القرآنية الموحدة، والمتنوعة الأبعاد والمظاهر.

إنَّ الاستقراء الحسنيّ المتكامل والمعصوم للواقع السياسي، والاجتماعي، والتربوي، والاقتصادي وغيرها في المجتمع آنذاك استدعى من الإمام عليه السلام الإسهام في رفد المنظومة المجتمعية بهذه المعارف الكلامية التي تزيدها قربًا من الله (عزّ وجلّ)، وتعرّفها بالجبهة الحقيقية تارة، والجبهة غير الحقيقية تارة أخرى، فضلًا عن ذلك بيان مدى قرب هذه الجبهة الحقيقية (جبهة الثقل الأصغر) جبهة الإمامة الحقّة من المنهج الاسلامي الصحيح، ومدى بعد الجبهة غير الحقيقية ونأيها عن المنهج الاسلامي الصحيح، وهي جبهة الطلقاء وأبناء الطلقاء، جبهة الاستيلاء على مقاليد المسلمين ظلمًا وعدوانًا، زد على ذلك تصحيح المسارات العقدية الخاطئة، ولا سيما عقيدة الإرجاء والجبر التي حِيكت من أدعياء الدين، ومنافقي الإسلام، يقول الدكتور محمد حسين الصغير: ((سخّر معاوية المناخ الكلامي لحماية حكمه، فقد استغل عقيدتي الإرجاء والجبر مجتمعتين ومنفردتين لبرمجة مخططه التضليلي، ورأى في ذلك مظلّة تحتضن الإطار الديني حمايةً لنظامه بإضفاء صبغة الشرعية عليه))[2]، وهذا الفهم الواقعي لحقيقة الإرجاء والجبر بوصفهما وسيلتين لحماية النظام الأموي المتهافت تنبّه عليه الدكتور محمد عمارة،

(1) ينظر: صلح الحسن عليه السلام غدير عزّ ولغز جهاد: 68.

(2) الإمام الحسن عليه السلام رائد التخطيط الرسالي: 212.

إذْ ذهب إلى ((أنَّ السلطة الأموية قد شجّعت فكر الإرجاء الذي يفصل بين الإيمان بالله، وبين سلوك المؤمن، فيعدّونه مؤمنًا، ذلك الذي لا يلتزم في سلوكه التزامًا حقيقيًا صادقًا بتعاليم الإسلام، وعَدُّوا التصديق القلبي كافيًا، وهو ما يدعو إلى ترك الجدل بشأن أعمالهم))[1]، ومن هنا فإنَّ المفكر الإسلامي عبد الكريم سروش يرى أنَّ علم الكلام لم يكن تدبير أحد أو تخطيط جماعة، وإنَّما كان تناميًا طبيعيًا، وتكاملًا تاريخيًا لمدرسة أو مذهب، فتجديد الدعوة وإلقاء الأفكار تظهر فهمًا جديدًا، واكتشافاً طريفًا للمضمون والمعطيات[2].

والحقيقة إنَّ كلام سروش يصحُّ من وجه، ولا يصح من وجه آخر، يصح في عدّ علم الكلام يساير العصر ويستجيب لمتطلبات الأفكار والرؤى التي يفرزها، فيكون علم الكلام مفَسِّرًا وموجّهًا إن تصحيحًا أو تخطيطًا، ولا يصحّ بلحاظ أنَّ علم الكلام لا يستفزُّ إلّا بعد ظهور الأفكار والرؤى، فهو وجهٌ غير مقبول؛ لأنَّ المعرفة العقدية الصحيحة، والمعطيات الكلامية بحاجة إلى تفسير وتوضيح، بمعنى استباق نشر الأفكار والرؤى العقدية الصحيحة قبل توجّه الإشكال، وإعلان الشبهات، وهذا ما حرص عليه كتاب الله (عزّ وجلّ)، والمصطفى صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام، فضلًا عن الشذرات والإضاءات التي ترشحت عن كلام الإمام الحسن عليه السلام.

ولبيان محزّ الحقيقة، وجوهرها، ومما يؤكد شرعية علم الكلام في ضوء الحاجة الفكرية والعقدية ما نجده في مواقف الإمام عليّ عليه السلام وما تبعه في ذلك الأئمة عليهم السلام من البحث الكلامي، وأوضح

(1) ينظر: مسلمون ثوار: 58-59.

(2) الكلام الإسلامي، عبد الكريم سروش: 38.

هـذه المواقـف هـو موقفـه عند رجوعـه من حـرب صفين، وسـؤال أحد أصحابـه عن مسـيرتهم وحربهم هَلْ بعلمِ الله وقضائـه أم لا؟ وهَمَّ أصحابه بمنعـه وقهـره عـن مثـل هـذا التسـاؤُل فِي مثـل هـذا الموقف، فقـال لهم الإمـام علـيّ عليه السلام: «دعـوه فـإنَّ مـا يطلبـه هـو الـذي نطلبه مـن القـوم»[1]، فأمسـى السـؤال والجـواب معـادلًا فـي النتيجـة لقتـال البغـاة، والمارقين، ولذلـك نجد هـذا التراث الكبير للأئمـة عليهم السلام أنَّه كان منفتحًـا على الجميع، ودونـك كتـاب الاحتجاج لأحمـد بن عليّ الطبرسـي المتوفـي في حدود (620هـ)، ترَ هذا الانفتاح الوسـيع على المسـلمين، واليهـود، والنصارى، والزنادقـة، والملاحـدة، فضـلًا عـن عبـدة النـار والدهريين وغيرهـم، زد علـى ذلـك مناقشـة الموضوعـات الكلاميـة كلّهـا التـي تطـرح منهم ومن غيرهـم سـؤالاً، وبـلا تحفظ.

تأمّـل معنـا قـول الإمام الحسـن عليه السلام اسـتدراكًا لقول أبـي ذر (رضي الله عنـه): قيـل للحسـن بـن علـي عليه السلام: إنَّ أبـا ذر يقـول: الفقر أحـبُّ إليَّ مـن الغنـى، والسـقم أحبُّ إلـيَّ من الصّحة، فقـال: «رحم الله أبـا ذر، أمّا أنا فأقـول: مَـنْ اتكل على حسـن اختيار الله لـم يتمنَّ أنَّه في غيـر الحالة التي اختـار الله لـه، وهذا مـن الوقوف علـى الرضا بمـا تصرّف به القضـاء»[2].

وسـنحاول أن نسـتجلي أهـم المعطيات التي نحسـب أنَّها تترشـح مـن المتـن الكلامي الحسـني، وهي:

المعطى الأول: المعرفة الإلهية الحقيقية

زهـرت المعرفـة الإلهيـة الحقيقـة عند الإمـام الحسـن عليه السلام، كيف لا؟ وهـو ريحانـة المصطفـى صلى الله عليه وآله، وربيب بيـت النبـوة، ورضيع لبـان الحكمة،

(1) الصدوق، التوحيد، 82.

(2) موسوعة الكلمة، الإمام الحسن عليه السلام: 209/7.

جاء رجل إليه، فقال له: يا ابن رسول الله صف لي ربَّك حتّى كأني أنظر إليه، فأطرق الحسن بن عليّ عليه السلام مليا ثمَّ رفع رأسه فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لَمْ يَكُنْ لَهُ أَوَّلٌ مَعْلُومٌ وَ لَا آخِرٌ مُتَنَاهٍ وَ لَا قَبْلٌ مُدْرَكٌ وَ لَا بَعْدٌ مَحْدُودٌ وَ لَا أَمَدٌ بِحَتَّى وَ لَا شَخْصٌ فَيَتَجَزَّأَ وَ لَا اخْتِلَافُ صِفَةٍ فَيَتَنَاهَى فَلَا تُدْرِكُ الْعُقُولُ وَ أَوْهَامُهَا وَ لَا الْفِكَرُ وَ خَطَرَاتُهَا وَ لَا الْأَلْبَابُ وَ أَذْهَانُهَا صِفَتَهُ فَيَقُولَ مَتَى وَ لَا بُدِئَ مِمَّا وَ لَا ظَاهِرٌ عَلَى مَا وَ لَا بَاطِنٌ فِيمَا وَ لَا تَارِكٌ فَهَلَّا خَلَقَ الْخَلْقَ فَكَانَ بَدِيئاً بَدِيعاً ابْتَدَأَ مَا ابْتَدَعَ وَ ابْتَدَعَ مَا ابْتَدَأَ وَ فَعَلَ مَا أَرَادَ وَ أَرَادَ مَا اسْتَزَادَ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»[1]، وقال عليه السلام بعد انتقال أمير المؤمنين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى (جلّ جلاله)، وقد بايعه الناس مبيّنًا حاكمية الله (جلّ جلاله)، وهيمنته على مقادير الأمور كلّها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ وَ خَصَّ مِنْ فَضْلٍ وَ عَمَ مِنْ أَمْرٍ وَ جَلَّلَ مِنْ عَافِيَةٍ حَمْداً يُتَمِّمُ بِهِ عَلَيْنَا نِعَمَهُ وَ نَسْتَوْجِبُ بِهِ رِضْوَانَهُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ وَ فِتْنَةٍ وَ كُلُّ مَا فِيهَا إِلَى زَوَالٍ وَ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ عَنْهَا كَيْمَا نَعْتَبِرَ فَقَدَّمَ إِلَيْنَا بِالْوَعِيدِ كَيْ لَا يَكُونَ لَنَا حُجَّةٌ بَعْدَ الْإِنْذَارِ فَازْهَدُوا فِيمَا يَفْنَى وَ ارْغَبُوا فِيمَا يَبْقَى وَ خَافُوا اللَّهَ فِي السِّرِّ وَ الْعَلَانِيَةِ إِنَّ عَلِيّاً ع فِي الْمَحْيَا وَ الْمَمَاتِ وَ الْمَبْعَثِ عَاشَ بِقَدَرٍ وَ مَاتَ بِأَجَلٍ وَ إِنِّي أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تُسَالِمُوا مَنْ سَالَمْتُ وَ تُحَارِبُوا مَنْ حَارَبْتُ فَبَايَعُوهُ عَلَى ذَلِك»[2].

وذكر الشيخ الصدوق (ت381هـ) رسالة الإمام الحسن عليه السلام إلى عليّ بن محمد بن إسحاق، قال عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَ رَحْمَتِهِ لَمَّا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْفَرَائِضَ لَمْ يَفْرِضْ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ بَلْ رَحْمَةً مِنْهُ إِلَيْكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ لِيَبْتَلِيَ ما فِي

(1) مسند الإمام المجتبى عليه السلام: 489.

(2) مسند الإمام المجتبى عليه السلام: 493.

صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ لِتَتَسَابَقُوا إِلَى رَحْمَتِهِ وَ لِتَتَفَاضَلَ مَنَازِلُكُمْ فِي جَنَّتِه»[1]، ولا يخفى ما في النص من إشارات بيّنات إلى قضية (العدل الإلهي)، بأنَّ الله تنزّه حليم عادل لا يَفْعل قبيحًا، ولا يخلّ بواجب، فإن قلت كونه تعالى عادلاً من جملة صفاته، فلِمَ أفردها بالذكر، وجعلها في فصل على حدة مقابل لفصل التوحيد؟ قُلتُ: لاختصاصه بكثرة المباحث الجليلة وكونه أصلًا لعدة مسائل شريفة كحسن التكليف، ووجوب الثواب والعقاب وغيرها[2]، وقد جاءت النصوص الصادعة بأنَّ الله (جلّ جلاله) لا يريد الظلم والقبائح، قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾[4]، وقوله تنزّه: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[5]، وقوله جلّ وعلى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[6]، وغيرها من النصوص.

إنَّ الاعتقاد بوجود الله تنزّه أصلٌ مشترك بين جميع الشرائع، السماوية وأساسًا يكمن الفارق الجوهري والأساس بين الإنسان الإلهي والمتدين، إنَّ القرآن الكريم يُعدّ وجود الله (جلّ جلاله) أمرًا واضحًا لا يحتاج إلى برهنة، ويرى أنَّ الشكّ والتردد في هذه الحقيقة أمر غير مبرر،، قال تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾[7][8].

(1) علل الشرائع: 249.
(2) ينظر: شرح الفصول النصيريّة: 191.
(3) سورة الإسراء، الآية: 38.
(4) سورة غافر، الآية: 31.
(5) سورة البقرة الآية: 205.
(6) سورة الزمر، الآية: 7.
(7) سورة الرعد، الآية: 10.
(8) ينظر: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام: 43.

ومن لواحق المعرفة الإلهية الحقيقية قضية الجبر والتفويض والقضاء والقدر التي تعدّ من القضايا التي لها مماسة بأفعال الله (عزّ وجلّ)، وصفاته، فالصفات الجمالية الكمالية: العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والاختيار، وما شابه ذلك[1].

وانبرى الإمام الحسن عليه السلام لإيضاح هذه الحقيقة في أعلى صورة وأتمّ بيان، كتب له الحسن البصري (ت110هـ) سائلًا : أمّا بعد، فإنّكم معشر بني هاشم الفلك الجارية في اللجج الغامرة، والأعلام النيرة الشاهدة، أو كسفينة نوح التي نزلها المؤمنون، ونجا فيها المسلمون، كتبت إليك يابن رسول الله عند اختلافنا في القدر، وحيرتنا في الاستطاعة، فاخبرنا بالذي عليه رأيك ورأي آبائك: فإنّ من علم الله علمكم، وأنتم شهداء على الناس، والله الشاهد عليكم، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فأجاب الحسن عليه السلام: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَصَلَ إِلَيَّ كِتَابُكَ وَ لَوْ لَا مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ حَيْرَتِكَ وَ حَيْرَةِ مَنْ مَضَى قَبْلَكَ إِذاً مَا أَخْبَرْتُكَ أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَ شَرِّهِ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ فَقَدْ كَفَرَ وَ مَنْ أَحَالَ الْمَعَاصِيَ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ فَجَرَ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً وَ لَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً وَ لَمْ يُهْمِلِ الْعِبَادَ سُدًى مِنَ الْمَمْلَكَةِ بَلْ هُوَ الْمَالِكُ لِمَا مَلَّكَهُمْ وَ الْقَادِرُ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَقْدَرَهُمْ بَلْ أَمَرَهُمْ تَخْيِيراً وَ نَهَاهُمْ تَحْذِيراً فَإِنِ ائْتَمَرُوا بِالطَّاعَةِ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا صَادّاً وَ إِنِ انْتَهَوْا إِلَى مَعْصِيَةٍ فَشَاءَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَهَا فَعَلَ وَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَيْهَا جَبْراً وَ لَا أَلْزَمُوهَا كَرْهاً بَلْ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِأَنْ بَصَّرَهُمْ

(1) جعفر السبحاني، العدل الإلهي، 69-72.

وَ عَرَّفَهُمْ وَ حَذَّرَهُمْ وَ أَمَرَهُمْ وَ نَهَاهُمْ لَا جَبْلًا لَهُمْ عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَيَكُونُوا كَالْمَلَائِكَةِ وَ لَا جَبْراً لَهُمْ عَلَى مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ وَ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ- وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى»[1]، وقدح الشيخ المفيد (ت413هـ) بهذه القضية، مبرزًا إيّها إلى الساحة باستيحاء قول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا جَبْرَ وَ لَا تَفْوِيضَ وَ لَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ»[2]، قال: ((إنَّ الله تعالى مكن الخلق من أعمالهم وأفعالهم ووضع لهم حدودًا فيها، وأمرهم بحسنها، ونهاهم عن قبيحها فلم يكن بتمكنهم إيّاها مجبرًا لهم عليها ، ولم يفوّض الأعمال لمنعهم من أكثرها))[3]، وقد أفاد الإمام الحسن عليه السلام من هذه القضية العقدية موظفًا إيّاها في تعامله مع الأحداث السياسية ولا سيما في هدنته وسلمه مع صوت الخداع والمكر والدعاء معاوية بن أبي سفيان، قال عليه السلام: «إِنَّ مُعَاوِيَةَ نَازَعَنِي حَقّاً هُوَ لِي دُونَهُ فَنَظَرْتُ لِصَلَاحِ الْأُمَّةِ وَ قَطْعِ الْفِتْنَةِ وَ قَدْ كُنْتُمْ بَايَعْتُمُونِي عَلَى أَنْ تسالمون [تُسَالِمُوا] مَنْ سَالَمْتُ وَ تحاربون [تُحَارِبُوا] مَنْ حَارَبْتُ فَرَأَيْتُ أَنْ أُسَالِمَ مُعَاوِيَةَ وَ أَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ وَ قَدْ بَايَعْتُهُ وَ رَأَيْتُ [أَنَ] حَقْنَ الدِّمَاءِ خَيْرٌ مِنْ سَفْكِهَا وَ لَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا صَلَاحَكُمْ وَ بَقَاءَكُمْ وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلى حِينٍ»[4].

ويعلو صوت الفهم الحقيقي الحسني لنظرية التوحيد، والتي تعد النظرية الحقيقية التي أشار إليها القرآن الكريم، واستند إليها المصطفى صلى الله عليه وآله، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام، قال الإمام الحسن عليه السلام في

(1) تحف العقول عن آل الرسول: 231.
(2) المصدر السابق.
(3) العقائد الاسلامية، دراسة منهجية في أصول الدين: 177.
(4) كشف الغمة في معرفة الأئمة: 179/2.

خطبة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ كَلَامَهُ وَ مَنْ سَكَتَ عَلِمَ مَا فِي نَفْسِهِ وَ مَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ وَ مَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مَعَادُه»[1]، «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ بِغَيْرِ تَشْبِيهٍ الدَّائِمِ بِغَيْرِ تَكْوِينِ الْقَائِمِ بِغَيْرِ كُلْفَةِ الْخَالِقِ بِغَيْرِ مَنْصَبَةِ الْمَوْصُوفِ بِغَيْرِ غَايَةِ الْمَعْرُوفِ بِغَيْرِ مَحْدُودِيَّةِ الْعَزِيزِ لَمْ يَزَلْ قَدِيماً فِي الْقِدَمِ رُدِعَتِ الْقُلُوبُ لِهَيْبَتِهِ وَ ذَهِلَتِ الْعُقُولُ لِعِزَّتِهِ وَ خَضَعَتِ الرِّقَابُ لِقُدْرَتِهِ فَلَيْسَ يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مَبْلَغُ جَبَرُوتِهِ وَ لَا يَبْلُغُ النَّاسُ كُنْهَ جَلَالِهِ وَ لَا يُفْصِحُ الْوَاصِفُونَ مِنْهُمْ لِكُنْهِ عَظَمَتِهِ وَ لَا تَبْلُغُهُ الْعُلَمَاءُ بِأَلْبَابِهَا وَ لَا أَهْلُ التَّفَكُّرِ بِتَدْبِيرِ أُمُورِهَا أَعْلَمُ خَلْقِهِ بِهِ الَّذِي بِالْحَدِّ لَا يَصِفُهُ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ لَا يُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»[2].

وهذه الحقيقة الدامغة تردّ قول الزاعمين أنَّ الشيعة الإمامية قالوا بالتشبيه والتجسيم، قال صالح بن فوزان: ((المشبّهة، هؤلاء شبّهوا الله بخلق، وجعلوا صفاته من جنس صفات المخلوقين، وبذلك سُمّوا بـ (المشبهة)، وأوّل من قال هذه المقالة هشام بن الحكم الرافضي، وبيان بن سمعان التميمي الذي تنسب إليه البيانية من غالية الشيعة))[3]، ويبدو أنَّ صالحًا الوهابي هذا لم يتعب نفسه في قراءة التراث الشيعي، فهو ممن يلقون القول على عواهنه دون تدبر وتمحيص، وقوله قول المحموم الذي لا يعي ما يقول، فقد عاب الشيخ الصّدوق (ت381هـ) في فاتحة كتاب (التوحيد) قومًا من المخالفين الذين ينسبون للشيعة الإمامية القول بالتشبيه، قال: إنَّ الذي دعاني إلى تأليف كتابي هذا إنّي وجدت قومًا من المخالفين لنا ينسبون عصابتنا إلى القول بالتشبيه

(1) المجلسي، بحار الأنوار، 75: 112.

(2) المصدر السابق، 43: 351.

(3) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: 156، وينظر: علم الكلام: 34-35

والجبر لما وجدوا في كتبهم من الأخبار التي جهلوا تفسيرها ولم يعرفوا معانيها ووضعوها في غير مواضعها ولم يقابلوا بألفاظها ألفاظ القرآن، أي: جاء منها ما جاء في القرآن الكريم من ألفاظ وتعابير، فإن كان القرآن الكريم دالاً على التشبيه والجبر فهي دالة أيضًا، وإن لم يقولوا بدلالة القرآن على ذلك فكيف قالوا بدلالة تلك الأحاديث؟ فقبحوا عند الجهّال مذهبًا، ولبّسوا عليهم طريقتنا، وحدّوا الناس عن دين الله، وحملوهم على جحود حجج الله، فتقرّبْت إلى الله تعالى ذكره بتصنيف هذا الكتاب في التوحيد ونفي التشبيه والجبر))[1]، ومن الجدير بالذكر فإنَّ الشيخ محمد رضا الجعفري قد انبرى مدافعًا عن هشام بن الحكم مبرّئًا إيّاه من تهمة التجسيم والتشبيه[2].

المعطى الثاني: الصّدع بالنبوة والإمامة

لا جرم أنَّ النبوة حاجة اجتماعية، لأنَّ الإنسان خلقه الله (تعالى) بحيث لا يستقل وحده بأمر معاشه؛ لأنَّه يحتاج إلى غذاء ولباس ومسكن وسلاح كلّها صناعي ليس كسائر الحيوانات، والإنسان إذا زُوحم على ما يشتهيه غضب على المزاحم، فتدعوه شهوته وغضبه على الجور على الغير؛ ليستبدّ على ذلك المشُتهى فيقع بذلك الهرج والتنازع، ويختل أمر الاجتماع فلا بدّ من قانون كليّ هو السنة والشرع، والشرع لابدّ من شارع ليُبيّن ذلك على الوجه الذي ينبغي، إذن لا بدّ من نبي معجز يكون من جنس المرسل إليهم، ليُمكن حصول الغرض من ارساله[3].

وقد ذكرنا من قبل السرّ والغاية من بعث الأنبياء والرسل

(1) التوحيد: 17–18.

(2) ينظر: الكلام عند الإمامية، نشأته وتطوره وموقف الشيخ المفيد منه: 197.

(3) ينظر شرح الفصول النصيرية: 221–223.

من نحو: إصلاح المجتمع، وتبيين الحدود الشرعية، ورسم المناهج الصحيحة للعيش الآمن المطمئن وغيرها، هذه الغاية تتطلب صفات ومؤهلات يتصف بها النبيّ والمرسل، ومن هنا فقد ذهب الإمامية بوجوب عصمة الأنبياء والرسل ما قبل البعثة وما بعدها؛ لأنَّها من لوازم الاصطفاء الإلهي، والانتقاء الربانيّ، وقد عاب صالح بن فوزان هذا المعتقد إذ قال: ((إنَّ الله لا يبعث نبيًا إلّا مِنْ كان معصومًا قبل النبوة كما تقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال: إنَّه لا يبعث نبيًّا إلّا مَنْ كان مؤمنًا قبل النبوة فإن هؤلاء توهّموا أنَّ الذنوب تكون خفضًا، وإنَّ قلب التائب منها، فمن ظنَّ أنَّ صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصًا فقد غالط غلطًا عظيمًا، فإنَّ الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منها شيء أصلًا، لكن إن قدّم التوبة لم يلحق شيءٌ، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب، والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله))[1]، وهو رأي الجمهور بجواز وقوع الصغائر منهم لكنهم لا يصرون عليها فيتوبون منها ويرجعون فيكونون معصومين من الإصرار عليها، ويكون الاقتداء بهم في التوبة منها[2].

ويبدوا أنَّ القول بجواز صدور الذنب والمعصية والخطيئة من الأنبياء والرسل أمر عظيم، وخطأ فادح أعاذنا الله (تعالى) منه، ولا يخفى أنَّ الأيديولوجية الحاكمة والسائدة في الثقافة الاسلامية هي التي أسست لهذا الأمر من أجل جواز خلافة وإمامة مَنْ كان عاصيًا وكافرًا ثمَّ أظهر التوبة بَلْه الدخول في الإسلام، غافلًا ومتناسيًا أنَّ المنصب

(1) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: 191-192.

(2) المصدر السابق.

الإلهي، والاصطفاء السماوي هو اصطفاء طهر ونقاء، قال تعالى: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

وقد استشرف الإمام الحسن عليه السلام هذا الأصل العقدي، في رسالته النافعة الماتعة إلى رأس النفاق والدهاء معاوية بن أبي سفيان، والتي تعدّ من الرسائل المهمة من بيان رحمة المصطفى صلى الله عليه وآله، وأخلاقه ومزاياه وصلابته في الحق، قال عليه السلام: «من الحسن بن عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان فإنّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلّا هو، أمّا بعدُ، فإنَّ الله (جلّ جلاله) بعث محمدًا رحمة للعالمين، ومنّة للمؤمنين، وكافة للناس أجمعين: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾، فبلغ رسالات الله، وقام بأمر الله حتى توفّاه الله غير مقصّر، ولا وانٍ، وبعد أنْ أظهر الله به الحقّ، ومحق به الشرك، وخصّ به قريشًا خاصة، فقال له: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾»[2]، وتتجلى قضية النبوة في المتن الحسنيّ في ظل بيان الغاية المرجوة من الاصطفاء المحمدي، قال عليه السلام: «وَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ هَدَاكُمْ بِجَدِّي مُحَمَّدٍ فَأَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَ رَفَعَكُمْ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَ أَعَزَّكُمْ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ وَ كَثَّرَكُمْ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ»[3].

الظاهر أنَّ هذا الاصطفاء الإلهي، والانتقاد الرباني لسيد الكونين محمد صلى الله عليه وآله هو نقطة شروع من أجل الاستمرار والامتداد، ويرى السيد محمد باقر الحكيم أنَّ الاصطفاء والاجتباء والاختيار من قبل الله تعالى للإمام والاستمرار والامتداد لمهمات الرسالة الإلهية، والامتياز بالعلم

(1) سورة البقرة، الآية: 124.

(2) مقاتل الطالبيين: 55، سورة يس، الآية70، سورة الزخرف، الآية: 22.

(3) كشف الغمة في معرفة الأئمة: 134/2.

والأخلاق والصفات الروحية المكتسبة فضلًا عن ذلك الولاية والحكم والإدارة لشؤون الناس لإقامة الحق والعدل والقسط بينهم؛ لأنَّ مِنْ يتقدّم الناس في هذا الأمر ويتصدّى له منهم ويتحمل مسؤوليته بالاصطفاء الإلهي له، لابدّ أن يكون مستحقًا لهذه الولاية والإدارة والحاكمية، ولا بدّ من وجوب الحبّ والولاء والمودة الخاصة والتقديس والتعظيم للإمام بما يتناسب مع مواصفاته الإيمانية الممتازة، ومسؤولياته الإلهية الخطيرة، وإنَّ الإمامة والإمام يمثل التكامل الإنساني في مسيرة البشرية، والهدف الذي خلق الله الإنسان على الأرض من أجل تحقيقه[1].

تأمّل معنا - أيُّها القارئ العزيز- استشراف الإمام الحسن عليه السلام مبدأ الإمامة راسمًا لوحة الاصطفاء والاختيار، على قاعدة عريضة مُعْجِبَة في معرفة أسس الاصطفاء، قال عليه السلام: «إنَّ الله اختارنا لنفسه، وارتضانا لديه، واصطفانا على خلقه، وأنزل علينا وحيه، وإنَّ الله لم يبعث نبيًّا إلّا اختار له نفسًا ورهطًا وبيتًا»[2]، فالإمام هو الرابط بين الناس وبين ربّهم في إعطاء الفيوضات الباطنية الملكوتية، قال الطباطبائي (ت1402هـ): ((فالإمام هادٍ يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمام بحسب الباطن نحو الناس في أعمالهم وهدايتها إيصالها إيّاهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرّد إراءة الطريق))[3].

أبان الإمام الحسن عليه السلام مقام الإمامة، وهو منصب لا يناله إلّا مَنْ حاز صفات الكمال، والتقوى، والعصمة، أخرج الهيثمي عن أبي جميلة أن الحسن بن عليّ حين قُتل عليّ استُخْلف، فيما هو يصلي بالناس

(1) ينظر: الإمامة وأهل البيت عليهم السلام النظرية والاستدلال: 24-26.
(2) مروج الذهب ومعادن الجوهر: 306/2.
(3) الميزان في تفسير القرآن: 272/1.

إذ وثب إليه رجل فطعنه بخنجر في وركه فتمرض منها شهرًا، ثمَّ قام فخطب على المنبر، فقال: «يا أهل العراق اتقوا الله فينا، فإنّا أمراؤُكم وضيفانُكم، ونحن أهل البيت الذين قال الله (عزّ وجلّ): ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. فما زال يومئذ يتكلم حتى ما ترى في المسجد إلّا باكيًا»[1].

ويخوض الإمام الحسن عليه السلام في هذا التسلسل الاصطفائي، والانتقائي، والتدرج الاجتهادي مستعينًا ومسترفدًا بالسياقات المقامية والمقالية، قال عليه السلام: «أيُّها الناس مَنْ عَرَفني فقط عَرَفني ومَنْ لم يَعْرِفْني فأنا الحسن بن عليّ، وأنا ابن الوحي، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل فينا، ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم»[2]، فلا يخفى الدور المشترك، والوحدة المترابطة الأجزاء في قيادة الأمة، النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله، إمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ثمَّ إمامة الحسن عليه السلام، ثمَّ إمامة الحسين عليه السلام، ثمَّ إمامة ذريته التسعة المعصومين عليهم السلام.

ويتزايد ويتعالى ويتلعلع صوت الإمام الحسن عليه السلام حينما انبرى صوت الكفر والتجزئة والعصيان معاوية بن أبي سفيان لقيادة الأمة ظلمًا وزورًا وبهتانًا، فيبيّن الإمام عليه السلام أحقيّته بهذا المنصب الإلهي فهو من مختصاته فاضحً تقمص معاوية هذا المنصب، والسطو عليه، قال عليه السلام: «فلمّا تُوفّي تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 273/9، سورة الأحزاب من الآية: 33.
(2) الذرية الطاهرة النبوية: 108.

وأبناؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقّه فرأت العرب أنَّ القول ما قالت قريش وإنَّ الحجة في ذلك لهم على مَنْ نازعهم أمر محمد فأنعمت لهم وسلمت إليهم (...) ولقد كنّا تعجّبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقّنا وسلطان بيْتنا، وإن كانوا ذوي فضيلةٍ وسابقة في الإسلام وأمسَكْنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يحيد المنافقون والأحزان في ذلك مغْمزًا يَتلمُوْنه به أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمرٍ لست من أهله لا بفضل من الدين معروف، ولا أثرٍ في الإسلام محمود وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ ولكتابه، والله حسبك فستُردُّ وتعلم لمن عقبى الدار، والله لتلقينّ عن قليل ربك ثمّ ليجزينك بما قدّمت يداك وما الله بظلام للعبيد»[1].

وعودٌ على بَدءٍ، فإنَّ الشريف المرتضى (ت436هـ) يؤكد لزوم وجود ((إمام معصوم في كل زمان؛ لأنَّ أدلة الشرع من كتاب وسنة لا تدلّ بنفسها لاحتمالها، ولذلك اختلفوا في معناها مع اتفاقهم في كونها دلالة، فلا بد من مبين عرف معناها اضطرارًا من الرسول أو من إمام سواه))[2].

وألمح الإمام الحسن عليه السلام عصمة أهل البيت عليهم السلام، وأنّهم مبرّؤون من الخطأ والزلل، وأنّهم الامتداد الطبيعي، والاستمرار المستقبلي اللازم لولاية النبيّ ﷺ من أجل حفظ الرسالة، والبلوغ بالمسيرة الإسلامية إلى أسمى غاياتها متمثلة في قيام مجتمع الحقّ والعدل الذي لا يشوبه ظلم ولا انحراف، قال عليه السلام: «نحن ريحانتا رسول الله، وسيدا شباب أهل

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 33/16.

(2) الشافي في الإمامة: 302/1، وينظر: الاقتصاد في الاعتقاد: 23-24.

الجنة، فلعن الله مَنْ يتقدّم، أو يقدّم علينا أحدًا»[1]، قال الاسترابادي: ((وذهب الإمامية إلى أنَّه لا يجوز عليه صغيرة ولا كبيرة لا عمدًا ولا سهوًا في التأويل قبل الوحي وبعده))[2].

ونختم هذه الفقرة بالقول: إنَّ الأئمة هم حجج الله في الأرض إذ لا معنى لأن تكون إمامتهم الإلهية أقلّ خيرًا ونفعًا للناس من عدمها، بل لا يجوز تكليفًا أن يرفض الإمام الإمامة التي هي بمنزلة النبوة؛ لكونها تكليفًا إلهيًا في حفظ الشريعة وبيانها، وبهذا تندفع شبهة موقف الإمام الحسن عليه السلام عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية، إذ لا يمكن أن يكون التكليف الإلهي والشرعي محل معارضة، بل لا يمكن تصوّره أصلًا فضلًا عن شرعيته وعدمها[3].

المعطى الثالث: التذكير بالمعاد

المعاد إمّا مصدر بمعنى (العَوْد)، أو اسم زمان، وفي الاصطلاح: عبارة عن ردّ النفس الناطقة إلى بدنها بعد مفارقتها عنه، أو جمع أجزاء المكلّف بعد تفرقها أو إيجاد أجزائه المعدودة[4].

ولمّا كانت الدنيا هي دار التكليف، فهي دار الكسب والاشتغال بمقتضيات التكليف، فلا جرم يعمّر الإنسان فيها مدة يمكن تحصيل كماله سواء حصل كماله الممكن أو لا، ثمَّ يحوّل إلى دار الجزاء: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[5].

(1) موسوعة الكلمة: 211/7.
(2) شرح الفصول النصيرية: 225-226.
(3) ينظر: علم الكلام المعاصر في ضوء المتغيرات الحديثة: 47.
(4) ينظر: شرح الفصول النصيرية: 251.
(5) سورة الجاثية، الآية: 22.

وتسمى دار الجزاء، ودار الآخرة، ودار الخلود وغيرها، والحاصل: أنَّ الله (تنزّه) خلق العباد وكلّفهم بتكاليف شاقة، يحصلون على الثواب الدائم أن التزموا أحكامه، ويعاقبهم إن أعرضوا عنها، وعمّرهم في الدنيا مدّة تظهر منها الامتثال أو الإعراض، ولمّا كان الموت لازمًا للإنسان لم يمكن إيصال الثواب والعقاب الدائمين إليه في هذه الدنيا، فوجب إعادته في عالم آخر، لإيصال أعواض أعمالهم إليهم، وذلك هو الآخرة[1]. والمعاد الركيزة التي تمنح الإنسان الشعور بالمسؤولية والضمانات الموضوعية.

إنَّ المعرفة الإلهية الحقيقية من لدن الإمام الحسن عليه السلام قادته إلى التذكير بالمعاد، وأنَّ البقاء والدوام والخلود لله (عزّ وجلّ)، وثمة يوم يحاسب فيه العباد قاطبة ثوابًا جزاءً أو عقابًا، تأمّل معنا قوله عليه السلام متوعدًا معاوية بما سينال من خزي في الآخرة، وعذاب عظيم، ولا يخفى إشادة الإمام الحسن عليه السلام إلى مسألة كلامية هي (الحساب والثواب والجنة والنار) ، وهي من المسائل العقدية المهمة، ويبدو أنَّ تذكير الإمام الحسن عليه السلام معاوية؛ لأنَّه يعلم أنَّ معاوية أنكر الحساب والعقاب، وأنَّ قضية المعاد غير موجودة ومعطلة في قاموسه الضبابي.

وأنَّه بقوله عليه السلام في وصف الجنة وعرصاتها وقيعانها للمحسنين، وذكر الجحيم والعذاب الأليم للكافرين، فقد نقل عنه عليه السلام اغتسل وخرج من داره في حلّة فاخرة، وبزة طاهرة، ومحاسن سافرة، وقسمات ظاهرة، ونفخات ناشرة، ووجهه يشرق حسنًا (...) فعرض له في طريقه من محاويج اليهود (...) فاستوقف الحسن عليه السلام وقال:

(1) المصدر السابق: 253.

يـا بـن رسـول الله: أنصفنـي (...) فقال عليه السلام: فـي أي شـيء ؟ فقال: جدك يقـول: الدنيـا سـجن المؤمـن وجنة الكافـر وأنت مؤمـن وأنا كافـر، فما أرى الدنيـا إلا جنـة تتنعـم بهـا، وتسـتلذ بها، ومـا أراها إلا سـجنا لي قد أهلكنـي ضرهـا، وأتلفنـي فقرها.

فلما سـمع الحسـن عليه السلام كلامه أشـرق عليه نور التأييد، واسـتخرج الجـواب بفهمـه مـن خزانة علمـه، وأوضح لليهـودي خطأ ظنـه وخطل زعمـه، وقـال: ياشـيخ (...) لـو نظـرت إلـى مـا أعـد الله لـي وللمؤمنين فـي الـدار الآخـرة ممـا لا عين رأت، ولا أذن سـمعت ، لعلمـت أني قبل انتقالـي إليـه فـي هـذه الدنيـا في سـجن ضنك، ولـو نظرت إلـى ما أعد الله لـك ولـكل كافـر فـي الـدار الآخـرة من سـعير نـار الجحيـم، ونكال العـذاب المقيـم، لرأيـت أنـك قبـل مصيـرك إليـه الآن في جنة واسـعة، ونعمـة جامعة[1].

المعطى الرابع: الدفاع عن الدين

مـن نحـو ما تقـدّم مـن تعريفـات علـم الـكلام، ولا سـيما تعريف الفارابـي: ((علـم الـكلام هـو ملكـة يقتـدر بهـا علـى نُصـرة الملّـة))[2]، وتعريـف ابن خلـدون (ت808هـ): ((علـم يتضمن الحجاج عـن العقائد الإيمانيـة بالأدلـة العقليـة، والردّ علـى المبتدعة المنحرفين فـي الاعتقادات عـن مذهـب السّـلف وأهـل السـنة))[3]، نتحصـل علـى أنَّ علـم الـكلام فضـلًا عـن كـون موضوعه هو اسـتجابة لحاجـة موضوعية كمـا هو الحال فـي كثيـر مـن العلوم فهـو في مسـائله وأبحاثـه انعـكاس، وتلبيـة لحاجة

(1) كشف الغمة في معرفة الأئمة: 166/2.
(2) إحصاء العلوم: 86.
(3) مقدمة ابن خلدون:458/1.

واقعية تتمثل بالآراء المتضاربة من واقع المسلمين العقائدي[1].

اتجه الإمام الحسن عليه السلام إلى استظهار هذا العلم في ضوء الحديث عن أهم القضايا الكلامية من أجل تصحيح المسار مرّة، واستجلاء الحقائق العقدية، والمسائل الكلامية كالنبوة والإمامة والمعاد مرّة أخرى؛ لأنَّ المجتمع قد نأى عن هذه المفاهيم والقيم، ومن هنا فإنَّ لعلم الكلام غايتين، غاية تنويرية، تطوّر الفهم الإيماني للفرد المسلم، وتوسع الإدراك المعرفي له ولا سيما المسائل العقدية المهمة، كالتوحيد، والنبوة، والإمامة، والمعاد وغيرها، وغاية دفاعية، هدفها نصرة الدين، وتحصينه من الانحراف العقدي والفكري.

تعرّضت الأفكار الكلامية، والمسار العام لعلم العقائد، وعلم الكلام إلى انحرافات عظيمة بسبب بعدها من الهندسة العقائدية الكلامية للقرآن الكريم، ولذلك ابتعد الاتجاه العام لعلم العقائد والكلام أيضًا عمّا يعرف بروح العقائد القرآنية أو القواعد العامة لعلم أصول الدين ومسار تكوين مقولاته القرآنية[2].

ولمّا كان الإمام الحسن عليه السلام يساير مجتمعًا فاقدًا للإرادة، يعيش في بيئة متلجلجة لا تميز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، فكان عليه السلام حريصًا في الدفاع عن العقيدة، بما أُوتي من حكمة وعصمة وقدرة خطابية ومنهجية معرفية منظمة، فعمل عليه السلام على تصحيح المسار العقدي للأمة الإسلامية عامة، ولأتباعه خاصة، مبصّرًا المجتمع بانتهاج السلوك الفقهي والعقدي الصحيحين، فاضحًا التيارات المنحرفة، والفرق

(1) مفهوم علم الكلام عند الفارابي: 109.

(2) ينظر: فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في انتاج المعرفة الدينية: 118-119.

الضالة، والجبهات المزيفة، كاشفًا الأباطيل الموضوعة التي أثارتها الجبهة المدمرة للإسلام، ودونك رسائله لمعاوية ابن أبي سفيان التي احتوت على الإشارات الواضحات في الكشف عن زيف الجبهة المناوئة للإسلام، وفضح المسلك العقدي المخطوء والمغلوط لهذه الجبهة، زد على ذلك ربط التوحيد بالإنسان، وعدم فصل الإنسان عن خالقه، والتذكير بالرسالة المحمدية العظيمة، وأنَّهم الامتداد الحقيقي للنبيّ محمد صلى الله عليه وآله، ناهيك عن التذكير بالمعاد والحساب من أجل الاعتبار والموعظة.

ولا بدّ من القول: إنَّ الإمام الحسن عليه السلام في مجال الدعوة والدفاع عن الدين، وتصحيح المسار العقدي، نجده يفسح مطلق الحرية للسائل من أن يطرح تساؤلاته ورؤيته، فلم ينظر إلى تلكم التساؤلات والرؤى على أنَّها نوع من الكفر والزندقة والضلال، وقد نقلنا آنفًا مناظرته عليه السلام مع اليهودي.

خاتمة البحث ونتائجه

آن الأوان تكشاف أهم النتائج التي توصلنا إليها.

أولاً: استجلى البحث حقيقة مفادها: أنَّ علم الكلام الإسلامي هو قرآنيّ التأسيس، وقد فصّل أسسه المصطفى صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، والصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، فضلًا عن ذلك نجد الشذرات الواضحات، والإشارات الوسيعات لهذا العلم في الأدب الحسنيّ.

ثانياً: حوى تراث الإمام الحسن عليه السلام على جملة من المسائل العقدية والمسائل الكلامية، ولا سيما التوحيد، والنبوة، والإمامة، والمعاد وغيرها.

ثالثاً: تبيّن لنا الوحدة الموضوعية لهذا العلم حاضرة في تراث الإمام الحسن عليه السلام، فقد تعامل مع أصول الدين (التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والعدل، والمعاد) بوصفها مبادئ متصلة ومترابطة، هذه اللوحة الخماسية على حد تعبير الأسعد التونسي[1] تمثل رؤية حضارية متقدمة تختزن داخلها مقدمات الدفاع والتغيير جميعها.

رابعاً: ظهر أنَّ الغاية في عرض هذه المسائل العقدية الكلامية عند الإمام الحسن عليه السلام أمران:

الأول: الدفاع عن الدين وتحصينه من الأفكار المنحرفة والضالة.

والآخر: كشف الجهات المنحرفة وفصلها من أجل تحذير المجتمع الإسلامي من الالتحاق بها وتأييدها.

(1) ينظر: التجديد الكلامي عند الشهيد محمد باقر الصدر (قراءة في المعالم المنهجية: 68.

المصادر

- القرآن الكريم
- إحصاء العلوم، أبو نصر الفارابي (ت339هـ)، قدّم له وشرحه: د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط1، 1996م.
- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح بن فوزان، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1411هـ-1990م.
- أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره، محمد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2009م.
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين العاملي، تحقيق وتعليق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي (ت505هـ)، تحقيق: د. انصاف رمضان، ابن قتيبة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1423هـ-2003م.
- الأمالي، أبو عبد الله ممد بن محمد البغدادي المفيد (ت413هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط2، 1414هـ-1993م.
- الإمام الحسن رائد التخطيط الرسالي، محمد حسين علي الصغير، مؤسسة البلاغ، ط1.
- الإمامة وأهل البيت عليهم السلام النظرية والاستدلال، السيد محمد باقر الحكيم، المركز الإسلامي المعاصر، بيروت- لبنان، ط1، 2003م.
- بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت1111هـ)،

تحقيق: عبد الزهراء العلوي، دار الرضا، بيروت- لبنان، 1403هـ-1983م.

- بداية المعرفة (منهجيّة حديثة في علم الكلام)، الأستاذ العلامة حسن مكي العاملي، دار الزهراء، قم- إيران، ط1، 1429هـ
- التجديد الكلامي عند الشهيد محمد باقر الصدر (قراءة في المعالم المنهجية)، الأسعد بن علي التونسي، مجلة المنهاج، العدد: 30، 1424هـ-2004.
- تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة البحراني (ت381هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط7، 1423هـ-2002م.
- التراث والتجديد من العقيدة إلى الثورة، د. حسن حنفي، دار التنوير، بيروت- لبنان، ط1، 1988م.
- التوحيد، أبو جعفر محمد بن علي بن موسى بن بابويه القمي الصدوق (ت381هـ)، تحقيق: هاشم الحسيني الطهراني، دار المعرفة، بيروت- لبنان.
- الذرّية الطاهرة النبوية، أبو بشير محمد بن أحمد بن حمّاد الدولابي (ت310هـ)، تحقيق: سعد المبارك، دار السلفية، الكويت، ط1، 1407هـ-1989م.
- الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت436هـ)، تحقيق: السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، راجعه: السيد فاضل الميلاني، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ط2، 1410هـ

- شرح الفصول النصيرية، عبد الوهاب علي الاسترابادي، من أعلام القرن التاسع الهجري، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، العتبة الحسينية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1433هـ-2012م.
- شرح المقاصد، سعد الدين التفتزاني (ت793هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت- لبنان، ط2، 1419هـ-1989م.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، ط1، 1428هـ-2007م.
- صراط الحقّ في المعارف الإسلامية، الأصول الاعتقادية، محمد آصف المحسني، دار الصادق عليه السلام، الحلة، ط2.
- صلح الحسن، غدير عزّ ولغز جهاد، أحمد محمد إسماعيل، دار الولاء، بيروت- لبنان، ط1، 1435هـ-2014م.
- عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ط1، 1974م.
- العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، العلامة جعفر السبحاني، نقله إلى العربية: جعفر الهادي، دار الفاروق، بيروت- لبنان.
- علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن على بن موسى بن بابويه القمي الصدوق (ت381ه)، دار المرتضى، بيروت- لبنان، ط1، 1427هـ-2006م.
- علم الإمام (تقريرًا لدروس السيد كمال الحيدري)، علي حمود العبادي، دار فراقد، قم- ايران، ط1، 1432هـ-2011م.

• علم الكلام، د. رجاء أحمد علي، دار المسيرة- الأردن، ط1، 2012م-1433هـ

• عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة (ت276هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1418ه.

• الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، محمد أركون، دار الساقي- بيروت، 1999م

• في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، د. إبراهيم مدكور، دار المعارف- القاهرة، ط2.

• فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في انتاج المعرفة الدينية، نجف علي ميرزائي، ترجمة: د. دلال عباس، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2008م.

• كشف الغمة في معرفة الأئمة، الحسن بن علي الأربلي (ت693هـ)، دار الأضواء، بيروت- لبنان، ط2، 1405هـ-1985م.

• الكلام عند الإمامية (نشأته وتطوره وموقع الشيخ المفيد منه)، محمد رضا الجعفري، نشرتنا (مجلة فصلية مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، العدد 31-30، السنة الثامنة، محرّم/جمادى الآخرة، 1413.

• الكلام الإسلامي، د. عبد الكريم سروش، مجلة نصوص معاصرة، العدد/4، السنة الأولى، مركز البحوث المعاصرة، بيروت، 1426هـ.

• مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن علي بن سليمان الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي،

القاهـرة، 1414ه-1994م.

• مـروج الذهـب ومعـادن الجوهـر، أبو الحسـن علي بن الحسـين المسـعودي (ت346هـ)، راجعه: كمال حسـن مرعي، المكتبة العصرية، بيـروت- لبنان، ط1، 1425هـ-2005م.

• مسـلمون ثـوار، د. محمـد عمـارة، دار الشـروق، القاهـرة، ط3، 1408هـ-1988م.

• مقاتـل الطالبيـين، أبـو الفـرج علـي بـن الحسـين الأصفهانـي (ت356هـ)، تحقيـق: السـيد أحمـد قصيـر، دار المعرفـة، بيـروت.

• معالـم التجديـد الفقهـي (معالجـة اشـكالية الثابـت والمتغيـر في الفقـه الإسـلامي)، ابحاث السـيد كمـال الحيـدري، الشـيخ خليل رزق، دار الهـادي، بيـروت- لبنان، 1429هـ-2008م.

• مفهـوم علـم الـكلام عنـد الفارابـي، خميسـي سـاعد، مجلـة انسـانيات الجزائرية فـي الأنثروبولوجيا والعلـوم الاجتماعية، العدد/11، 2000م.

• مقدمـة ابـن خلـدون، عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن خلـدون (ت808هـ)، تحقيـق: عبـد الله محمـد الدرويـش، دار يعرب، دمشـق، ط1، 1425هـ-2004م.

• الملـل والنحـل، أبـو الفتـح محمـد بن عبـد الكريم الشهرسـتاني (ت548هـ)، مؤسسـة الحلبي.

• مناظـرات فخـر الديـن الـرازي في بـلاد مـا وراء النهـر، أبو عبد الله محمـد بـن عمـر بن الحسـن الـرازي، تحقيـق: د. فخـر الله خليف، دار المشـرق- بيـروت، 1966م.

• منهاج اليقين في أصول الدين، الحسن بن يوسف الحلّي (ت726هـ)، تحقيق: يعقوب الجعفري، دار الاسوة- قم، ط1، 1415هـ.

• المنهج التوحيدي عند الإمام الكاظم عليه السلام ،نماذج وشخصيات، د. زهير غزاوي، المنهاج، العدد/3، 1424هـ-2003م.

• نهاية المرام في علم الكلام، الحسن بن يوسف العلامة الحلّي (ت726هـ)، تحقيق: فاضل العرفان، مؤسسة الصادق عليه السلام، قم، 1430هـ

• الميزان في تفسير القرآن، محمد الحسين الطباطبائي (ت1402هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط3، 1393هـ.

• نهج البلاغة للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، شرح الاستاذ محمد عبده، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

• علم الكلام المعاصر في ضوء المتغيرات الحديثة، د. هاجر دوير، دار الحكمة، بغداد، ط1، 2011م.

• مسند الإمام المجتبى، جمعه ورتبه: عزيز الله العطاردي، دار عطارد، ط1، 1415هـ

• المنهج التوحيدي عند الإمام الكاظم عليه السلام، د. زهير غزاوي، مجلة المنهاج، العدد(3)، 1424هـ-2003م.

• موسوعة الكلمة، السيد حسن الحسيني الشيرازي، دار العلوم للتحقيق والنشر، ط1، 1428هـ-2007م.